

مشروع هوسرل في الفلسفة الألمانية المعاصرة.

الأستاذ: بن عبد الكبير محمد السالم / جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

الأستاذ: حجب يوسف / جامعة أوبوكر بالقائد-تلمسان

ملخص المقال:

الفيثومينولوجيا اكتشاف مدهش بالنسبة لهوسرل والفلسفة، أو حتى الثقافة البشرية الأوروبية إبان القرن 20، والتي كثيرا ما تحدث عنها هوسرل على أنها: العلم الصارم الذي ينبع من العمق متجه مباشرة إلى العالم من أجل كشف ماهيته وتعليق ما عدا ذلك، والفيثومينولوجيا لم تنشأ من عدم؛ بل كانت هناك أفكار وتيارات ساهمت في بلورتها، كالفلسفة العقلانية، والرومانسية، أو حتى مدارس علم النفس المعاصر والنيوكانطيين، إذن فما إحداثيات الفيثومينولوجيا إلا داخل فواصل معلم الفلسفة الألمانية التي ترجمت على مسارات متعددة.

ما معنى أن نتكلم عن مشروع داخل الفلسفة الألمانية المعاصرة! فقط إذا ما تتبعنا، وإستبصرنا، مسار الفلسفة، وأجزمنا من منطلق مسلمات فلسفية مُتَقَدِّمَة بأنها في حالة أزمة وضعف كُلِّي، وأنها بحاجة إلى مشروع ينيرها ويذهب بها إلى الهناك، أي ما مدى صحة أن نقول بأن الفلسفة الألمانية المعاصرة قامت على أحد أكبر المشاريع ألا وهي الفيثومينولوجيا، فالتاريخ يحدثنا بأن الفلسفة المعاصرة بدأت مع نيتشه وإن كان يمتد وتمتد إلى شوبنهاور، والفلسفة الوجودية، إذن أن نفكر داخل سياق متن هوسرل الفيثومينولوجي وحضوره في الفلسفة الألمانية يعتبر مشروع، فنقول: لفظ «مشروع» (Projekt)^{*} أو مخطّط أولي، للدلالة على التغير

* تستعمل كلمة مشروع (Projekt-Projet) بمعنى واسع جداً خصوصاً عند الكتاب الوجوديين ، للدّل على كل نزوع الفرد إلى التغير ذاته وتغيير ما يحيط به في إتجاه معين. وكما يقول J.P.Sartre في كتابه: "Conscience de soi et connaissance de soi" عندما أقول إن الإنسان مشروع يقرّر بذاته..فإنما أعني..أنه لا توجد مسبقا حالات نفسية مثل اللذة أو الألم، يجري تعلق الوعي بها بل أعني أن الوعي، في الحقيقة، هو الذي يلتذ أو في مجرى حياة من الطبيعة أو جوهر ذاته وذات الإنسان" [لاندلاند أندريه، موسوعة لاندلاند الفلسفية: معجم مصطلحات الفلسفة النقدية و التقنية، المجلد الثاني (H-Q) ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للنشر والطباعة، بيروت-لبنان، بط، سنة 2008، ص1056].

باتجاه ضمن غاية أو هدف معين والفيثومينولوجيا هي المنهج الذي سيجعل من الفلسفة علماً صارماً، إذن فالفيثومينولوجيا هي مشروع في الفلسفة الألمانية، تحاول إصلاح ما كان وتقدم وجهة نظر في المعرفة ونقد المعرفة كما جاء في كتابه "Die Idee der phänomenologie"، والحقيقة أن الفيثومينولوجيا لم تأتي من عدم، لقد كانت هناك لحظات ومواقف ساهمت في بلورتها، لكن هذا لا يعني أنها بقت عند أفكارها؛ بل تجاوزتها إلى موقف مغاير من حيث جعلها في غنى عنها، وأكد أن هذا يظهر في المرحلة المتأخرة من حياة هوسرل (Husserl 1859-1938) (هوسرل متأخراً) حيث اهتم بمواضيع تتعلق بالعالم. لذلك ما يهم في هذا اللحظة هي رحلة هوسرل الإبيستيمية وبلورة فكرة مشروع الفيثومينولوجيا، إذن؛ ومن هذا المنطلق نقول: من أين استمد هوسرل أفكار انجاز مشروع فيثومينولوجيا ترنسندنالية؟

بإمكاننا تحديد تفكرنا وبشكل إستكشافي عن المعنى الحقيقي لهدف الفيثومينولوجيا الذي من أجله وضعت، فقط من خلال ممارسة فعل العودة إلى مؤسسها (هوسرل) هذا من جهة وأرشيده الضخم الذي بلغ تقريبا (45000) من جهة أخرى، أي كان لزاما لفهم هدف الفيثومينولوجيا، أن نعرّج على متن مؤلفات هوسرل لفهم: ما المقصود بـ«الفيثومينولوجيا»^(*)؟ وليس من باب الصدفة أن نقول

* Dans le Séminaire François DASTUR avec ARTE-FILOSOFIA, Cannes à la 14 & 15 avril 2007, posé «AUTOUR DE LA PHÉNOMENOLOGIE» dans le chapitre I. Les fondateurs du mouvement phénoménologique: Husserl et Heidegger: 1) La notion de phénomène, qu'il dit dans la définition phénoménologie: "Ce terme est formé à l'aide de deux mots grecs phainomenon et logos. Phainomenon, au pluriel ta phainomena, vient du verbe phainô, qui signifie éclairer, faire briller, puis rendre visible, faire voir, le mot phaos-phôs, lumière, venant de la même racine: ainsi l'adverbe phainomenôs signifie manifestement ou visiblement. Le phénomène est donc ce qui se montre, apparaît, est manifeste."

(phainomenon لقد وردت ترجمة النص إلى العربية: "تشكل هذه المفردة من كلمتين إغريقيتين "فاينومينون" (ويعني phainô), تنحدر من الفعل "فاينو" (ta phainomeno). "فاينومينون"، وبالجمع "نافاينومينا" (logos) "لوغوس" (، النور، تأتي من الجذر نفسه: phaos-phôs أنار، ألع، أظهر، أرى. حيث الكلمة "فاوس-فوس" (معناه: بوضوح أو بجلاء. فالظاهرة هي إذن ما يتبدى، ما يتجلى، ما يظهر. "phainomenôs الظرف "فاينومينوس" [فرانسواز داستور (مدخل إلى الفيثومينولوجيا)، ترجمة محمد شوقي الزين، مجلة الكلمة، مؤسسة دلتا للطباعة والنشر-بيروت، د.ع، د.س، ص 110.]

بأن مؤسس الفينومينولوجيا الفعلي: هوسرل؛ لأن هذا جلي من خلال كتابه (Die Idee der phänomenologie, Fünf Vorlesungen) سنة (1907)، لذلك قد نعرفها: بعلم الذاتية الترنسندنتالية وكذلك علم الماهيات الأصلية وعلم الظواهر أو كما يسميها أيضا الفلسفة الأولى والذي يعني به العلم الذي يبرهن بنفسه على نفسه بصورة مطلقة، أي "العلم الكلّي الشامل"⁽¹⁾، ولاشك هنا يدفعنا القول ضمنيا: يريد هوسرل من الفينومينولوجيا أن تصير منهجاً كلياً لعالم المعيش، وبالتالي فإن نقف على أرض كالفينومينولوجيا خطر إن صحّ القول؛ وكأننا على أرض متحركة غير ثابتة، بمعنى لا يمكن تحديد تعريف واحد لها، ولأن هوسرل نفسه كان وكل مرة يغير طريقه في البحث، إذن نكون أمام فينومينولوجيات متعددة داخل فينومينولوجيا واحدة، ولكي لا نحدّ ونحدّد من أفق الفينومينولوجيا، نقول: أنها الرؤية المباشرة بالعين المجردة إلى ظواهر الأشياء، ما يعني أنها (الفينومينولوجيا) تدرس وتحلل وتصف الظاهرة لا الباطن (كانط)، أي هي تركز انتباهها على ما يظهر أو ما يتبدى أمام الوعي ما يعني أن الفينومينولوجيا تعتمد على ما هو معطى حديسياً. والفينومينولوجيا في حدّ ذاتها مفهوم قديم قديم الفلسفة بجذورها وأغصانها، فأول من استعمل لفظة «فينومينولوجيا» كان: جوهان هانوتشر لمبرت (J.H.Lambert) في كتابه: (Neues Organon) سنة (1764) في ألمانيا، ثم استعملها كانط إمانويل في كتابه: (Metaphysische Anfangsgrunde der Naturwissenschaft) سنة (1786) ومن بعده هيجل في كتابه: (Phaenomenologie der Geistes) سنة (1807) ورينوفيه في كتابه: (Fragments de la philosophie de Sir W. Hamilton) سنة (1840) ووليام هاملتون في كتابه: (Ectures on logique) سنة (1860) وإميل في: (Journal intime) سنة (1869) وإدوارد فون هارتمان في: (Phaenomenologie der Sittlichen Bewusstseins) سنة (1879)⁽²⁾، لكن التأسيس الفعلي للمصطلح ليدل على منهج فلسفي إبستيمي كان مع إدmond هوسرل^(*) الذي بدأ حياته كعالم رياضي

¹ HUSSERL Edmund, Méthode phénoménologique et philosophie phénoménologique (conférences de Londres 1922), traduit par Marc RICHIR, Annales de Phénoménologie, 2003, p162 .

² يوسف سليم سلامة الفينومينولوجيا المنطق عند إدmond هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص ص 9 10 11.

^{*} في الدرس الافتتاحي لهوسرل ب غرايبرغ عام 1917 يقول: "تدعى الفينومينولوجيا الخالصة [لأنها] العلم الخالص بالظواهر المحضة وهذا التصور عن الظاهرة والذي نشأ تحت أسماء عديدة منذ القرن الثامن عشر دون أن يسقط

ومنطقي ثم كفيلسوف وكان مؤلفه الأول سنة (1891) بعنوان: (Philosophie der Arithmetik) وفي عامي (1900 و1901) (logische Untersuchungen)-حيث هنا ولدت الفينومينولوجيا في صورتها الأولى إذ شرح هوسرل ضمن هذا الكتاب المنهج الجديد وأهم التحليلات التي تتعلق بمنهج سليم، وهذا بعد إن عرّج على بعض المواقف والآراء التي حققت نجاحاً (العلوم الفيزيائية والرياضية) وأخرى فشلاً (العلوم الإنسانية) في صورتها الحقيقية من وجهة نظرة عقلية وموضوعية مفادها أن "القوانين المنطق ليست تجريبية ولا معيارية من وضع ذوات واقعية، وإنما هي قوانين مثالية وقبلية لوعي محض أو شعور خالص من طبيعة أن يتعلق دائماً بموضوع قصد"⁽³⁾.

إن تأسيس أرضية الفينومينولوجيا من خلال الانتقادات الموجة إلى التيار السيكلولوجي التجريبي جعلت هوسرل على خطى "فينومينولوجيا وصفية" التي اعتمدت على فكرة القصد، ولقد أبرز الفرق بينها-الفينومينولوجيا-وبين علم النفس وتمييزها عن باقي العلوم الأخرى إذ يقول: "إنها أي الفينومينولوجيا تسعى علم الظواهر غير أن هناك علوم معروفة منذ القدم تتناول هي الأخرى الظواهر"⁽⁴⁾، وما يقصده هوسرل هنا هو كل من علم النفس وعلوم الطبيعية، فعلم النفس يدرس الظواهر النفسية، وعلم الطبيعة يتناول الظواهر الفيزيائية، ومن هذا سيكمل هوسرل الطريق الذي مهد له دلتاي وبرنتانو قبله.

ومن خلال هاته التراكمية الإستميتة لتاريخ الفينومينولوجيا تضعنا العبارات أمام موقف فلسفي محرج، أي أمام إشكال كان يجب الخوض فيه منذ البدء لذا وكمسلمات: أليست الفينومينولوجيا هي من تأسيس هوسرل وأن هذا الأخير فيلسوف ألماني معاصر، وأن ألمانيا كنموذج كانت تعيش حياتها الفلسفية الخاصة بها كباقي الأوروبيين، فما موقع الفينومينولوجيا بالمعنى الإبيستمي في الفلسفة الألمانية المعاصرة؟ أو بمعنى آخر كيف عاشت وتعايشت الفينومينولوجيا في فضاء الفلسفة الألمانية المعاصرة؟ لماذا بالضبط الحديث عن الفينومينولوجيا؟

عليه الضوء هوما ينبغي أن نعرض له قبل أي شيء آخر" [نقلا عن مصطفى عادل، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمينوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 2003، ص109].

³ إبراهيم مصطفى، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، دط، دس، ص50.

⁴ نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل: نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر.

يتطلب التفكير وقبل الخوض في صلب هذا الموضوع في أن نفتح نقاشا صارما أمام الفلسفة الألمانية المعاصرة أولاً ثم الفينومينولوجيا ثانياً، وبالتالي يجب أن نعبر بعض الاهتمام (Das Interesse) للموضوع الأول ولأنه أي الاهتمام يعني-على حدّ تعبير هيدغر: "أن نكون تحت و بين الأشياء، أن نقف وسط شيء ما ونبقى هناك" إذن لنقف وسط الفلسفة الألمانية وبحوزتنا الموضوع الثاني (الفينومينولوجيا) ولنبحث عن مكانا نضعها فيه وهذا بعد أن نعقد اتفاقا مع تاريخ الفلسفة الألمانية، ومعنى هذا يجب اضطراريا في ضوء ما قيل أن يكون هناك تأثير وتأثر والقصد هنا فقط بالمعنى الذي يفهمه كل دارس لتاريخ الفلسفة بالمعنى الإبيستمي.

إن مركز الصدارة هنا مختلف إن تعلق الأمر بالفلسفة الألمانية، وبالتالي لربما يكون القول هنا مجرد عرض بسيط لتحولات الوعي في التاريخ من منطلق التوجه لمشروع الفينومينولوجيا، لذا سوف نعرض أحيانا ونقف أحيانا أخرى فقط من أجل الوصول إلى ماهية الفينومينولوجيا،-ليس من باب البدهة إن قلنا-أن الفلسفة الألمانية-وكتعريف-تطلق على تلك المرحلة الممتدة من نهاية القرن (18) إلى بداية القرن (20) أي تلك المرحلة التي تمتدّ من إيمانويل كانط (1724-1804) حتى ويليام هيجل (1770-1831) وهي تُألف المرحلة الكبرى للفلسفة المثالية الألمانية (كانط، فيشته، جاكوبي، شلنغ، هيجل) وبغض النظر عن فلسفة ليبينيس في القرن (17) والكانطية الجديدة في القرن (19)، أو غيرها.

بمعنى؛ إن من أبرز فلاسفة الألمان المثاليون كل من فيشته من خلال مفهوم الذاتية وشلنغ من خلال فكرة الموضوعية أو "«المطلقة» [لإيهيغل]"⁽⁵⁾، فكان الهم الوحيد هو إدراك المطلق بالنظر العقلي وهذا بغض النظر عن كانط زعيم العقلانية وعصر الشك مع ديكارت والفلسفة التجريبية الإنجليزية^(*)، وبتعبير بسيط أن فلاسفة الألمان المثاليون اشتغلوا على إمكانية "إيجاد نسق عقلي متكامل يعم الوجود

⁵ محمد الشيخ، فلسفة الحدائنة في فكر هيجل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2008، ص63.

* ونقصد هنا وإلى جانب ذلك في الفلسفة الحديثة كانت فلسفة ديكارت التي تركزت أساسا على مبدأ الشك كمنهج للوصول للمعرفة الحقّة، واعتبرت أن الميتافيزيقا هي نقطة البدء في نظرية العلم بما هي تشكل الفلسفة الأولى، فالحواس واستدلالات العقل هما في موقف من الريبة في نظر ديكارت فقط الشك بإمكانه أن يقبض على عملية التفكير بما هي صحيحة، أما الفلسفة التجريبية الإنجليزية هي نتيجة إلى ما آلت إليه الفلسفة الديكارتية التي فصلت الذات عن الموضوع لتضعنا في موقف الثنائية، إذن فما آلت إليه تجربة لوك وهيوم إلا الجانب المتعلق بالتجربة والإحساس فكلا من لوك وهيوم سعى إلى تأسيس معرفة قائمة على الإحساس.

بأكمله ويلمه بأجمعه"⁽⁶⁾ أي كانت الرؤية موجهة من أجل تأسيس نسق متكامل يحقق النظرة العامة للعالم، لذلك يجب بناء العالم وفق الحجج الذهنية أو العقلية المنطقية وبالتالي إن موضوع إيجاد نسق دقيق هو ما جعل من الفلسفة الألمانية مثالية بالفعل، أي المطلوب من فلسفة عصرهم ليس هو إيجاد نسق من عدم يحكي عن نظام العالم ويكشف منطق تشكله وإنما "التعبير عن هذا النسق والإبانة عنه"⁽⁷⁾، وفكرة «النسق» ليس بالمفهوم العلمي في الوقائع الإختبارية وإنما في معنى هذه الوقائع كما تفصح عنه الفلسفة.

إن الفلاسفة المثاليون في تنافس للكشف عن "هذا النظام والإعلام له"⁽⁸⁾، فقد كان كانط أحد أبرز الشخصيات الفلسفية، والذي توصل إلى نتيجة لربما كانت الفاتحة لعصر جديد في قوله: أيها الشباب اعملوا عقولكم لتكون لكم القدرة على استعمال عقولكم.. أو في قوله في نصّه الموسوم للإجابة على سؤال قد طرح من طرف احد القديسين: "ما الأنوار؟" (Was ist Aufklärung)^(*)، ليكتب بعد ذلك كتبه المشهورة حول النقد أي نقد كانط كل شي حتى النقد ذاته، لذلك لقد حصل نوعا ما إن لم نقول بشكل كلي الاقتناع بأن هناك نسقا واحدا قد أخذ في النمو وليست أنساق متعددة، والنسق كان بمثابة المنهج الكلي الذي لاشك فيه أن يصلنا لفهم تجربة عالم المعيش، لذلك كان سعي الفلسفة الألمانية دائما باتجاه البحث عن نسق يتميز بالإطلاقية ومعنى هذا البحث عن «المطلق».

إن نحقق نسق يفهم العالم بعمق في كليته هو درب من المثالية، لنسمع عبارات شلنغ التي تقول في طرحها لبعض الشروط: أولا: أن يكون له بما هو "نسق العالم" مبدأ قائم بذاته يظهر نفسه في كل أجواء المجموع، وثانيا: أن لا يتم إغفال أي شيء

⁶ المرجع السابق، ص 63.

⁷ المرجع السابق، ص 64.

⁸ المرجع السابق، ص 64 56.

(الذي يرجع إليه هو ذاته، القصور هو Unmündigkeit) هو خروج الإنسان من مرحلة القصور (Aufklärung التنوير)^{*} عدم قدرة المرء على استخدام فهمه دون قيادة الغير، ويكون هذا القصور راجعا إلى الذات إذن كان سببه لا يكمن في غياب الفهم؛ بل في غياب العزم والجرأة على استخدامه دون قيادة الغير، أي غياب حرية العقل. [راجع في ذلك النص أو النص الأصلي 1.2.33-42. AK VIII. Emmanuel kant , réponse à la question: qu'est-ce que les lumières ?] المترجم للعربية: كانط إيمانويل، (ما الأنوار؟)، ترجمة: نعيمة حاج عبد الرحمن وفؤاد مایت، مجلة أيس، العدد 1، [الجزائر، 2005، ص 11 10]

منه مهما جل شأنه أو دق وثالثا: يلزم أن يتوفر النسق المطلوب على منهج "توليد" وتقديم بحث يسمح لنا بالتأكد من أننا ما أهملنا أي عنصر أساسي أو أسقطناه⁽⁹⁾، أما الوسائل التي تهيأت بها المثالية الألمانية لتحصيل المطلق بالنظر العقلي المحقق فيمكن إجمالها في: أولا؛ الاستعاضة عن ذات الفيلسوف "الأنا" بـ"ذات مفكرة مطلقة" أو "ذات النسق" وثانيا: الرقي بالفلسفة إلى مستوى العلم المطلق وثالثا: تحويل العلم الفلسفي إلى نسق مطلق ولكي لا يكون قولنا مجرد سرد نكتفي بأهم فكرة قامت عليها المثالية الألمانية في: استعاضتها عن "أنا" الفيلسوف المفكرة بـ"ذات مفكرة مطلقة" أي بمعنى "تذويب" الذات الفردية في ذات كونية، وهذا من خلال جوانبة متن فيشته على أن الأنا أساس فلسفته وشلنغ في العلم الفلسفي وسبيل تحصيله أو هيجل في وضع الفرد ضمن الروح المطلقة، ومن هذا الطرح نقول كذلك أن المثالية الألمانية أرادت الرقي بالفلسفة إلى منزلة العلم وتحويلها على حدّ قول هيجل لا إلى الأقوال التلقائية؛ بل إلى أقوال علمية، لكن-وفي حركة سيرورة التاريخ- هل حققت الفلسفة الألمانية هذا النسق العلمي؟ تبقى الإجابة فقط من وجهة صيرورة الفلسفة التي تتعاقب عليها البشرية، أي مع مطلع القرن التاسع عشر واجهت فلسفة هيجل مجموعة من الانتقادات اللاذعة التي حالت بها إلى ظهور فلسفات لا نسقية مع أنها تنتهي رومانسياً لها وبغض النظر عن المدة الزمنية أي فلسفة ممثلة من طرف شوينهاور ونيتشه التي سعت لفهم الوجود على شاكلتها الخاصة، لكن نجد إلى جانب ذلك بروز المذهب الطبيعي وازدهاره مما أضعف مهمة الفلسفة ذاتها مما أدى إلى ظهور فلسفة رجعية إلى المثالية، خاصة إلى هيجل من خلال الهيجليين اليسار واليمين والمذهب التاريخي وكانط من خلال مدرسة الكانطية الجديدة أو النيوكانطية ولا ننسى إلى جانب ذلك النزعة النفسانية التي امتدت بجذورها إلى ديكارت^(*)، لكن ما معنى هذا؟

⁹ المرجع السابق، ص 66.

* لقد إمتدت النزعة النفسانية بجذورها لحقبة الفلسفة الحديثة، أي ديكارت وعصر الشك من خلال فكرة الكوجيتو التي وضعنا في علميين أو ثنائيتين الفكر بما هو مجرد والمادة بما هي موجودة هناك (الواقع)، فمن هذه الثنائية: الذات والموضوع ظهرت فلسفتين: العقلية متجهة للمثالية من خلال سبينوزا وليبنس حتى كانط وفيشته وهيجل وأخرى تجريبية متمثلة من طرف لوك وهيوم مروا بسيكولوجية وأنتروبولوجية هوبز إلى غاية جون ستوات ميل ضمن مفهوم الاستقرار الذي سيكون نقطة ارتكاز برنتانو في تأسيسه لعلم النفس.

فبدءاً لقد عاش هوسرل في ضوء حقيقتين أو حقبتين: القرن التاسع عشر والقرن العشرين، حيث كان هناك تأثير وتأثير، أي من خلال مرحلته الأول ونعني بها: الأخذ والتأثر والتلمذة، أما الثانية التي نعني بها: مرحلة العطاء والتأثير والأستاذية، وبالتالي يعتبر القرن التاسع عشر مرحلة خصبة في الفكر الأوروبي عامة وألمانيا خاصة من خلال ثلاثة مراحل: الفلسفة المثالية ثم الإتجاه العلمي التطوري والإتجاه النفساني، حيث كان نقط إشتراك وإمتزاج الإثنين، أي تيار الفلسفة الكانطية الجديدة من خلال المدرستين السادسة والسابعة أي "ماربورغ" و"بادن" والإتجاه العلمي التطوري المادي الذي يمثل إتجاه الرجعيين الهيجليين اليسار، وبغض النظر عن ماركس وإنجلز فيما بعد، ويساندون في منطلقهم فكرة داروين في التطور من خلال "لودفيغ فيورباخ" (1804-1872) و"جاكوب موليشوت" (1822-1893) و"لودفيغ بوخنر" (1824-1899) ثم "كارل فوجت" (1817-1893)، والإتجاه النفساني الذي جمع بين كل من ميتافيزيقا الفلسفة المثالية والمبادئ العلمية التجريبية الخاصة بالمادية التطورية وكان منطق بحثها "الأسس المنطقية وسلوكات الذات الإنسانية" التي ترمي في مضمونها: كتب هوسرل الأولى لتأسيس الفينومينولوجيا، ومن أهم ممثلي هذا الاتجاه نجد "لوتزه" (1817-1881) و"فشنر" (1801-1887) و"فونت" (1822-1920) وإلى جانب ذلك نذكر "برنتانو" (1838-1917) و"ماينونج" (1853-1920) و"هوسرل" (1859-1938)، مع أن أهم مشكل أثير في هذا العصر (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) هو نظرية المعرفة، "وكان الصراع فيها خصبا وعلى الأخص في ألمانيا"⁽¹⁰⁾، وبمعنى آخر كانت ماهية الصراع في الكيفية التي تتم بها معرفة الأشياء الخارجية أو في الكيفية التي "ترتبط [بها] العمليات العقلية الإدراكية بالأشياء الخارجية المدركة"⁽¹¹⁾، هذا مما أدى بدوره إلى طرح إشكالية علم النفس وعلاقته بالمنطق تارة وعلاقته بالميتافيزيقا تارة أخرى، وبما أن الاتجاه التجريبي كان في أوج ازدهاره من خلال الكيمياء والفسولوجيا التي ترد بدوره للمادية التطورية، سيكون وفي القرن العشرين كقوة منتصرة لإرساء قواعد الدراسات الإنسانية وقواعد البحث العلمي في السلوك البشري ليكون نفوره وانشقاقه (علم النفس) عن العلم الكلي بالتعبير الكلاسيكي أي عن المثالية

¹⁰ سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1991، ص 62.

¹¹ المرجع نفسه، ص 63.

الميتافيزيقية تحت اسم "علم نفس تجريبي" خالص، فلقد حاول "لوتزه" من التجريبيين في علم النفس من خلال مؤلفاته "علم النفس الطبي" و "العالم الأصغر" التوفيق بين الميتافيزيقا والعلم لكن محاولة "فشنر" الذي بدأ ميتافيزيقا، أن يغلب العنصر التجريبي في علم النفس ليؤسس "علم النفس الفيزيقي" الذي كان دعوة لأبحاث "بوخنر" في دراسة الإحساسات دراسة تجريبية إلى غاية "فوقت" الذي أسس مخبرا لعلم النفس عام (1879) في لايبزج، لكن ما موقع الفينومينولوجيا ضمن هذه التيارات؟ أي ما موقف هوسرل من فلاسفة عصره؟

لقد كان هوسرل بمثابة الصفحة البيضاء التي تخط عليها التجربة الحسية ما تمليه على حدّ تعبير لوك وهيوم؛ بل هوسرل كان تلميذا نجيب يتقصى كل فكرة قد يطرحها الزمن من جهة أو أساتذته من جهة ثانية؛ بل إنه كان.. يقرأ لكثير من هؤلاء المفكرين الذين تعرضوا لمشكلة المعرفة⁽¹²⁾، وهذا أن هوسرل قد تشرب من المثالية الألمانية والمثالية الرجعية من خلال الكانطية الجديدة أمثال "هرمان هولمبولتز" (1821-1894) و "فريدريش ألبرت لانج" في الفسيولوجيا (1828-1875) الذين بحثوا في مفهوم "القبلي" عند كانط أما بخصوص نظرية المعرفة لقد حاول بول ناتورب البحث فيها وإعارتها إهتمام أكبر، وإلى ذلك نجد حضور فرنز برنتانو (Franz Brentano: 1838-1917) من أحد كبار الباحثين في علم النفس وشتومبف (Carl Stumpf: 1848-1936) وبغض النظر عن ماينونج، لكن ما معنى أن نتكلم عن فرنز برنتانو؟ ما مدى إمكانية الرهان في أن المنهج الفينومينولوجي نشأ في أحضان مدرسة فرنز برنتانو؟

يمكننا الحديث وقبل الخوض في الإجابة وقبل الإجابة عن السؤال العام (ما موقع الفينومينولوجيا ضمن هذه التيارات؟) نشير ولو باختصار إلى أحداث مدرسة برنتانو: لقد ظهرت فلسفة برنتانو لمحاولة إصلاح الفلسفة إصلاحا جذريا بحيث تستند إلى أسس علمية ومن أجل بعت الفلسفة من جديد التي دامت فترة طويلة من الزمن في انحطاط نتيجة لسيادة النزعات الربية التي حالت بين الفلسفة في أن تحقق نظرة شاملة، ولقد انطلق برنتانو من "معطيات الشعور المباشر وهو يرى أن الظاهرة النفسية تتمتع بيقين مباشر بالقياس إلى الظواهر الفيزيقية.. فليس لها من

¹² المرجع السابق، ص 63.

يقين إلا من طريق ارتباطها بالظواهر النفسية"⁽¹³⁾، ونجد إلى جانب ذلك أن برنتانو قد تشبع بأفكار الفلاسفة اليونانية وخاصة أرسطو من خلال كتابه (Aristoteles und sein Weltanschauung)⁽¹⁴⁾ بالإضافة إلى أفكار جون ستورات ميل (J . S . Mill) في مفهوم الاستقراء والدليل هو كما يقول برنتانو نفسه: "إن العلم يكون تافها ولا موضوع له إذا لم يكن مستند إلى أسس نفسية سليمة قابلة للتبرير الاستقرائي"⁽¹⁵⁾، أي أن برنتانو إتخذ الاستقراء منهجا لعلم النفس ليتبين لنا أن برنتانو قد جعل الظاهرة النفسية مختلط بالظاهرة الطبيعية، وبالتالي فما فعله برنتانو هو فقط إعادة إحياء المنهج التجريبي في نتيجة أن يجعل علم النفس علم للعلوم، لكن بعد اكتشافه لفكرة القصدية كانت نقطة أساسية ليؤسس علم النفس الوصفي أي من خلال كتابه (برنتانو) "علم النفس من وجهة النظر التجريبية حين..ميز فيه نوعين من علم النفس: علم النفس الذي كان يستمد منهجه من العلوم الطبيعية التي تؤدي فيها كل من الملاحظة والتجربة والاستقراء الدور الأساسي وبين علم النفس الوصفي الذي يعتبره نشاطا نبغ فيه دفعة واحدة ودون استقراء معرفة قبلية وقطعية (Formelle)، ومن هذا ما ركز عليه برنتانو في مدرسته الجديدة في البحث هو: "الشعور"⁽¹⁶⁾ ولما كان كل شعور هو شعور قصدي إذن فيعتبر مكتشف "القصدية"، وباعتبار هوسرل حضر محاضرات برنتانو وصاحبه كثيرا في مساره الفكري هذا ما جعله يأخذ عنه فكرة القصدية بهدف تجاوز المأزق الفلسفي وجعل الشعور قصدا للأشياء الخارجية في العالم وإلغاء الاعتقاد الطبيعي وهذا كان إعلانا على أن هوسرل قد تبني هاته النزعة (النفسية) أي لقد كان هدف هوسرل كواحد من النفسانية هو البحث عن أسس يقينية للعلم لتكون الفينومينولوجيا بمثابة تحليل الوعي حيث تكمن الموضوعية مطلقة وبمعنى أخر لقد سعى هوسرل إلى بناء نظرية للمعرفة انطلاقا من تحليل الشعور، ولأن تاريخ الفلسفة في نظره لم يخرج عن هذا الهدف وبالتالي فما مشرع هوسرل الأول إلا حلقة من سلسلة هذا

¹³ يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص98.

¹⁴ HENRI Arvon, La philosophie allemande, éditions Seghers, Paris, 1970, p137.

¹⁵ يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص98.

¹⁶ نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل: نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 2008، ص ص43 44.

الكفاح الطويل الذي خاضته النفسانية من أجل أن تكون علما للعلوم ومنه نقول على حدّ القول أنه "لا يمنع من القول بأن برنتانو هو صانع العصر الذي جعل وجود الفيثومينولوجيا ممكنا بعد أن قدم للعصر الحديث فكرة القصديّة"⁽¹⁷⁾.

ولكي لا تكون الكلمات مجرد سرد لحكاية تاريخ أزمت فلسفية وغير ذلك، نقول: أن الفيثومينولوجيا نشأت فعلا في أحضان الفلسفة الألمانية المعاصرة وفي التي كانت قبلها (الحديثة)، أي لقد استمدّت لبنات الفيثومينولوجيا وبصفة عامة من صيرورة حركة تاريخ الفلسفة والعلوم، ونقصد بذلك أن الفيثومينولوجيا انطلقت من المثالية الألمانية (كانط، فيشته، شلنغ، هيغل) والتجريبية (لوك وهيوم) والعقلانية (ديكارت وسبينوزا وليبنس) والرجعية المثالية من خلال الكانطية الجديدة (ناتورب) والنفسانية (فرنز برنتانو) ومن ما خلفه المذهب الطبيعي وحتى أساتذة هوسرل^(*) باعتباره كان رياضيا، وهذا جلي من خلال قول فاربر "إن ناتورب وبرنتانو وشتومبف ثم فريجه فيما بعد يعتبرون على الأخص غاية في الأهمية لأنهم قدموا الخلفية التاريخية لهوسرل"⁽¹⁸⁾، وبصفة خاصة ستكون نظرية قصديّة^(*) الوعي هي المبدأ الأولي للفيثومينولوجيا الهوسرلية باعتبار إن برنتانو انتقل بدراسته الأخيرة إلى الشعور ووصف قصديّة الشعور للوصول إلى ماهيته⁽¹⁹⁾، لكن وإلى جانب

¹⁷ يوسف سليم سلامة، الفيثومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص 31.

^{*} في عام 1878 إلحق هوسرل بجامعة برلين وتلمذ فيها على ثلاثة من كبار رياضيي العصر وهم: كرونكر Kronecker (1823-1891: رياضي ألماني كانت إسهاماته الأساسية في الجبر العالي) وكيومر Kummer (1810-1893: رياضي ألماني إهتم بشكل أساسي بالرياضيات العالية والهندسة العالية) وفيرستراس Weirstrass الذي كان أعظمهم (1815-1893: رياضي ألماني ممن شاركوا في تأسيس النظرية الحديثة للدالات) [يوسف سليم سلامة، الفيثومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص 31 32].

¹⁸ سماح رافع محمد، الفيثومينولوجيا عند هوسرل، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1991، ص 65.

^{*} القصديّة مصطلح أوجده المدرسيون، هو مشتق من الكلمة اللاتينية "intendo" أو "intento" بمعنى الشد أو المد أو التوجّه نحو. [وشن دلال، (القصديّة من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية، الجزائر، العدد السادس، سنة 2010]. والقصديّة لغة: من الفعل قصد، هي العودة إلى الأشياء عيها، وهي كل وعي وعي بشيء ما، وهي كل شعور هو شعور قاصد ومدركه هو كل موضوع قصدي، أما هوسرل فيرى أن القصديّة: هو أن يحقق لنا الاتصال مع العالم الخارجي وإقامة جسر بينهما أي بين الذات والعالم الخارجي أي تعني اتجاه الشعور نحو إعطاء الذات أو اكتساب ماهية الموضوع المقصود. فالشعور عند هوسرل يدل على كل الأفعال النفسية أو التجارب الحية المقصودة، فماهية القصد تقوم على قصد الموضوع مباشرة دون أن يكون الموضوع أو شيء يناظره قائم في الشعور نفسه، ومن هذا نتبين أن كل ما هو شعوري ناتج عن تجربتنا الحية وهو الفعل القصدي.

¹⁹ HENRI Arvon, La philosophie allemande, éditions Seghers, Paris, 1970, p138 .

ذلك هناك المذهب التاريخي في أشهر ممثليه فللهام دلتاي الذي يعتبر من الكانطيين الجدد المتأخرين الذي حاول جاهدا الفصل بين علم النفس والعلوم التجريبية، باعتبار أن الظاهرة الإنسانية غير الظاهرة الفيزيائية الطبيعية وبغض النظر عن شلايرماخر في دراساته الهرمينوطيقية لدا كانت كتب هوسرل الأول من سنة (1900 إلى 1913) ندًا إلى هذا التحول التي تتمثل في "فلسفة الحساب" (Philosophie der Arithmetik (1891) والبحوث المنطقية (logische Untersuchungen 1900 و 1901) ومقالة "الفلسفة باعتبارها علما صارما" (Philosophie als strenge Wissenschaft (1911) و"أفكار مسددة من أجل فينومينولوجيا خالصة وفلسفة فينومينولوجيا" (Ideen zu eine reinen phänomenologie und phänomenologische philosophie (1913)، وإضافة إلى هذه التحقيقات أن هوسرل سينطلق من الرياضيات ليؤسس الأرضية للفلسفة ولاعتبار أن سؤال الأساسي لرياضيات هو تقريبا سؤال الفلسفة (La questions fondamentales des mathématiques sont des questions philosophiques)⁽²⁰⁾ ولأن نقطة البدء عند هوسرل في بحث في مشكلة العدد، ومن هذه المفهمة يدفعنا التساؤل في تحديد المعنى الحقيقي للفينومينولوجيا والمنهج الفينومينولوجي أي: ما هو المنهج الفينومينولوجي؟

من خلال كتاب هوسرل الأفكار يحدد فيه الهوية الحقيقية لطبيعة هدف المنهج فهو يرى في معنى قوله: أن يكون المنهج الفينومينولوجي بمثابة نقد للمعرفة لأن المعرفة شرط إمكانية الميتافيزيقا أي أن منهج النقد المعرفة هو المنهج الفينومينولوجي عينه، الفينومينولوجيا بما هي نظرية عامة في الماهية تدحض كل تفكير ريبى ونقد المعرفة التي قصدها هوسرل ليس هو القصد الكانطي أو ما مارسه النيوكانطية؛ بل في إجراء فينومينولوجي منهجي يسمح وبشكل سديد تحقيق رؤية ماهوية بإمكانها أن نخبرنا وبشكل حدسي عن ماهية الشيء المدرك ألا وهو الظاهرة ومنه-وكتعريف-الفينومينولوجيا هي وبنوع آخر "نقد في المعرفة"⁽²¹⁾ الذي همه فقط «التبيين» (Aufklären)، وبالتالي إذا كانت مهمة نظرية المعرفة أو نقد العقل النظري بادئ الأمر "نقدية" فيجب عليها إذن أن تقوم برؤية تفحصية للموقف

²⁰ MARC Lonny, Découvrir la philosophie contemporaine, Édition Eyrolles, Paris, 2009, p68.

²¹ هوسرل إدموند، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007، ص35.

الطبيعي ونقد كل الأحكام والشناعات التي يقع في علاقته بين المعرفة والمعنى المعرفي وموضوع المعرفة⁽²²⁾ وهذا ما ستفعله الفيثومينولوجيا لأننا عندما نقول: «نقد» نكون أمام منهج يمارس هذا النقد، أي أمام الفيثومينولوجيا التي من خلالها سيؤسس المنهج، أي منهج كما أرادته وسعت إليه الفلسفات التقليدية ولأن الفلسفة تحتاج بعد كل هذه الفترة إلى «إستحداث» أي "نقاط بدأ كلها مستحدثة"⁽²³⁾. وقبل عرض نظام الفيثومينولوجيا يقول هوسرل عن هذا الأخيرة: الفيثومينولوجيا [لفظ] يدل على علم وعلى نظام من المبادئ العلمية كما أنها (الفيثومينولوجيا) تدل وفي الأصل على منهج وعلى موقف للفكر: موقف الفكر الفلسفي بخاصة والمنهج الفلسفي بخاصة⁽²⁴⁾.

أولاً: الفيثومينولوجيا باعتبارها وصفية وهي تعتمد أساساً على فكرة القصدية التي أستمدها هوسرل من مدرسة فرنز برنتانو ومعنى هذا: أن القصدية كانت عند برنتانو سوى قيمة سيكولوجية حيث كان الطابع الذي يميز الظاهرة السيكولوجية هو الوعي المباشر غير إن سرعان ما اتخذت (القصدية) مع هوسرل قيمة إبستمولوجية ثم ترنسندنتالية ثم اتسع هذا المفهوم ليشير إلى الوعي ثم أصبحت هي الصفة المميزة لعلاقة جديدة بين الذات والموضوع، ولقد ذكر هذا بدءاً في كتابه "أبحاث منطقية" سنة (1901)، عندما قطع العلاقة مع الاتجاه النفسي التجريبي المسيطر على الحياة اليومية حيث أكد أن موضوع الرياضيات وموضوع المنطق ليست نتيجة عن علوم النفس ومن هذا أخذ الشعور عند هوسرل معطى عيني تعيشه الذات ليس بالمعنى السيكولوجي وإنما بالمعنى الفيثومينولوجي ومن هذا كان الشعور ليس الذي يكشف الموضوع وإنما يعطى وينكشف بنفسه لرؤية هذا الشعور لأن الظاهرة بالنسبة إلى هوسرل هي ما يظهر مباشرة في الشعور أي أنها تدرك بالحدس قبل أي تفكير أو حكم "إن الفيثومينولوجيا تدعونا إلى نوع من النظر الترנסندنتالي أو المعيش الترנסندنتالي.. التي ندرك بواسطتها الشعور"⁽²⁵⁾.

²² HUSSELER Edmund, L'idée de la phénoménologie, cinq leçons, traduit par Lowit (A), PUF, Paris, 1993, p

43.

²³ Op.cit, p46.

²⁴ Op.cit, p 45.

²⁵ نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل: نظرية الرد الفيثومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر،

إن صياغة هوسرل لقصديه جديدة أظهر الاختلاف الجذري بينه وبين برنتانو، فهذا الأخير كان يرى في القصدية الميزة الأساسية لكل الظواهر النفسية والخبرات الذاتية لذا كان الفعل القصدي عنده متجها إلى الذات فقط لا إلى العالم الخارجي ومواضعه. ومع هوسرل أصبحت القصدية نوع من التحيز لموضوعات مختلفة فليست كل خبرة يرتبط بها الوعي لموضوعه تكون القصدية، لأن الخبرات لدى الذات القاصدة تبدل جهد فعال لمعرفة الموضوع أي عدم الفصل بين الذات العارفة وموضوع المعروف فمهمة الفيلسوف تكمن في تحديد الموضوع عن طريق القصد؛ كما أن هوسرل يفرض انطباعات واقعية غير قصدية وهذه الانطباعات نشعر بها لكن لا نستطيع رؤيتها فمثلا أرى اللون الأحمر فلدي انطباع بالحمرة لكن لا أرى انطباعي؛ بل أرى ذلك الشيء الأحمر خارجا عن شعوري".⁽²⁶⁾ بذلك فإن الوعي يتميز بحركة خروجية أساسها في طابعه القصدي التوجيهي وثمرتها إمكانية التمييز بين داخل وخارج إطلاقا أو حتى بين ذات وموضوع⁽²⁶⁾. إن الجديد الذي قدمه هوسرل للقصدية هو اعتباره لشيء فعل الوعي قاصدا كل الموضوعات، فكأن شيء الفعل هو من إنتاج الفعل بالذات ومن إبداعه، ما يعني أن القصدية في هذا الضوء أصبحت مرتبطة بالوعي والشعور، إذن ما هو موجود في الشعور كتجربة حية هو فقط فعل القصد، وفي هذا يكون التمييز بين المعنى والموضوع ما يعني أن أفعالنا هي تجارب حية للمعنى المقصود، أما الموضوع القصدي فإنه عال على التجربة الحسية. ثانيا: الفينومينولوجيا باعتبارها ترنسندنتالية؛ أي بعدما أنى هوسرل من وضع الركائز الأولية للفينومينولوجيا، وأكد على ضرورة العودة إلى الشعور ما يعني العودة عن الأشياء، فالعودة عن الأشياء يعني استحضارها في وقت آني في الوقت الذي نريد نحن أن نستحضر هذه الأشياء ومنه تكون النتيجة "العودة عن الأشياء بغية العودة إلى الأشياء"، وهذا ما جعل هوسرل يتم منهجه بما سماه الرد أو التعليق وكان معنى قصده (هوسرل) أنه: "في كل بحث معرفي-نظري-سواء تعلق الأمر بهذا النمط من المعرفة أو ذاك يجب أن نطبق الرد المعرفي-النظري-وهذا يعني أن نستبعد كل مفارقة تتناولها هذه المعارف، إن نطبعها بطابع اللامبالاة، أو بطابع العدمية المعرفية.. فليس هذا مجال الحكم عليها، إن هذا الأمر يبقى كليا خارج اهتمامنا"⁽²⁷⁾.

²⁶ انطوان خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية، دار التنوير للطباعة والنشر، دط، بيروت-لبنان، 2008، ص 40.

²⁷ نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل: نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 2008، ص 100.

إن هوسرل يدعوا إلى ردّ كل الظواهر وإعادتها إلى أصلها الحقيقي وذلك بغية إرجاعها فيما بعد ما يعني أنه هو العملية استبعاد لهذه الطبقات واستقصاء لهذه الوجوه. وهو الذي يساعدنا أن نرى الظواهر كما رأيناها قبل أن يحصل لها الردّ وهذا ما يساعدنا على جعل الشعور ينكشف لذاته، من هذا يكون الردّ كمرحلة من مراحل المنهج الفينومينولوجي ذلك أنه يسمح لنا بإدراك العالم كظاهرة أي يؤدي إلى إظهار وإبراز جوانب العالم وماهيته. والتعليق هو الاسم الثاني للردّ هو تعليق الحكم وردّ الأشياء إلى ماهيتها الأيدوسية كما تعطى في أصلها الحقيقي لأن كل فينومينولوجي عليه أن يسلك هذا الطريق لمعرفة صواب حقيقته أو خطأها "فعلى كل فيلسوف أن يسلك على هذا النحو مرة في حياته، وإن لم يكن قد فعل فعله عليه أن يفعله حتى وإن كانت له فلسفته هذه الأخيرة يجب معاملتها أمام التعليق كأى حكم مسبق"⁽²⁸⁾. من هنا كانت عملية الردّ ليست إقصاء لكل الخبرات والماهيات التي أدركناها وإنما الاحتفاظ بها إلى وقت آخر حتى نتحقق منها ونتأكد من صحتها خاصة تلك الأفعال العيانية الظاهرة للعيان التي ظهرت أماننا مباشرة ولم نكن نعرف ما هي أو ما أصلها.

إن التقارب بين الوعي والموضوع المدرك يولد لنا ردا (Éποχή/Epochè/إبوكيه) من خلال هذا الردّ يمكن أن نؤسس العالم في ذاتنا وذلك من خلال النظر بقصد إلى الظواهر والرد له مرحلتين: أولاً؛ الردّ الماهوي (Eidetsche reduktion): هو الردّ الذي أقوم فيه بإدراك الصور العقلية والماهيات الحقيقية للأشياء كما تظهر حية في الشعور أي أن في هذه المرحلة نرد الظواهر إلى أصلها الحقيقي أو إلى ماهيتها. وذلك باستبعاد كل إدراكاتنا المتمثلة في أحاسيس ومشاعر وعواطف و كل ما هو متعلق بشعورنا، وبالتالي نكون نحن بصدد الانطواء في داخله، عالم مليء بالماهيات؛ بل عالم الماهيات هذا لا نتوصل إلى إدراكه إلا عن طريق الحدس وهو حدس الماهيات؛ أي ترك كل الإعراض الظاهرة والاحتفاظ بالماهيات وهذا عن طريق منهج التعليق الذي مهمته الأساسية هي إظهار هذه العلاقة الأساسية بين الشعور والعالم، لكن هوسرل ومع انفتاحه على ديكارت الذي أرسى بفضل الفينومينولوجيا الترنسندنتالية جاء على لسان هوسرل في كتابه التأملات الديكارتية حيث يقول: "إنني

²⁸ هوسرل إدموند، التأملات ديكارتية: المدخل إلى الفينومينولوجيا، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت، 1958، ص43.

سعيد لتمكني من الكلام عن الفيْنُومينُولُوجيا المتعالية. فالفيْنُومينُولُوجيا مدينة بالاندفاعات التي تلقتها من جديد لـرينيه ديكارت "أكبر مفكري فرنسا"⁽²⁹⁾. فصدر عنها ما يسمى-ثانيا-بـالردّ الترنسندنالي؛ هو يمثل آخر مرحلة من مراحل الردّ الماهوي، حيث في هذه المرحلة يوضع كل شيء بين قوسين لا الوجود فقط بل كل ما لا يقوم أمام الشعور الخاص وحده، وبذلك لا يبقى من الموضوع إلا ما هو معطى قصديا إلى الشعور الخالص⁽³⁰⁾، أي في هذه المرحلة تصبح المعطيات التي كانت في مرحلة الردّ الماهوي معطيات متعالية تتمكن من خلالها توجيه إنتباهنا إلى شعورنا الداخلي وإلى فصل الإدراك نفسه عن العالم الخارجي.

وهوسرل لم يذهب إلى هذا الطريق إلا بعدما تبين له نقصا في الكوجيتو الديكارتي ونقصا في العمل الذي أنجزه ديكارت، فديكارت شك في وجود العالم الخارجي وما فيه ولكنه وجد أنه لا يستطيع أن يشك بوجوده هو ذاته، لذا اتخذ هوسرل طريق آخر وهذا من خلال "الأنا" لأن الأنا الديكارتي والأنا الهوسرلية متشابهان غير أن هوسرل يريد أن يدخل "أناه" في مجال التعليق أي يخضعه لنفس المبدأ الذي خضع له العالم لتصل إلى "الأنا" المتعالية وهذا حسب قول هوسرل: "إنني بلجوي إلى عملية التعليق الفيْنُومينُولُوجي إنما أحيل أناي الإنسان الطبيعي وحياتي النفسية-مجال تجريبي الداخلية-إلى أناي المتعالية والفيْنُومينُولُوجية"⁽³¹⁾.

فتحويل هوسرل "أناه" الطبيعي إلى أنا الترنسندنالي سيتوصل مباشرة إلى مجال الشعور الخالص المتعالي المؤلف من "الإنية" جمع "أناة" متعالية، وهذه الإنية ليست لوحدها متعالية بل هناك "إنيات" لا تحصى كلما خرجت من مجال الوعي إلى مجال الشعور بالعالم ليست في حقيقته أو في ظواهره وإنما في معناه فالنتيجة التي استخلصها هوسرل هي: أن كل ردّ ليست الكوجيتو وحده وإنما الأنا-الكوجيتو-الكوجيتاتوم (Ego-cogito-cogitatum) ومعناه الشعور بهذا العالم بصفته الشعور المؤسس لمعنى العالم⁽³²⁾، فكل هذا التحول جاء به هوسرل في كتابه "التأملات الديكارتية" الذي كتبه عام (1930)، ليفسح المجال في الأخير إلى تلميذه (فينك Fink)

²⁹ المصدر السابق، ص 41.

³⁰ إبراهيم مصطفى، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، دط، وسنة النشر، ص 52.

³¹ هوسرل إدmond، التأملات ديكارتية: المدخل إلى الفيْنومينُولُوجيا، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت، 1958، ص 90.

³² نادية بونفقة، فلسفة إدmond هوسرل: نظرية الرد الفيْنومينُولُوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 2008، ص 98.

ليكمل هذا الكتاب نظرا للنقص وعجز الكوجيتو على الانفتاح على مواضيع متعلقة بالآخر ما يعني مجال التذويت أو التقويم وهي فينومينولوجيا التقويمية، فما هو التقويم؟

ثالثا: فينومينولوجيا التقويم (Konstituieren phänomenologische): ولأن التقويم هو العنوان الأعلى لفاعلية الوعي التي تم الكشف عن بنيتها وتأسيسها في الأنا الخالص المطلق⁽³³⁾ فالتقويم هو المرحلة الأخيرة التي وصل إليها هوسرل في منهجه الفينومينولوجي وهذا بعد أن أدرك أن الكوجيتو الديكارتي لا يصلح لكل الأحوال والظروف، والتقويم عند هوسرل هو النظر إلى الآخر إلى ما هو موجود في هذا العالم بعيدا عن الذات الإنسانية أي إنتقال الإنسان من إنيته إلى إنيات أخرى، فهو سرل جعل الإنية متعالية وهي مركز جميع الإنيات وهي التي تجمع إنيتي وإنيات أخرى، فهذه الإنيات ناتجة عن كثرة الأفعال القصدية المتجهة إلى كثرة الموضوعات من هذا كانت مهمة الفينومينولوجيا التقويمية هي جمع ولم شمل جميع الإنيات في بنية واحدة وهي الأنا الواحد. والقصدية لها الدور الفعال والرئيسي في تحديد بدايات الموضوع التي يراد إدراكها أو إدخالها إلى مجال الوعي أو الشعور يقول تيسير شيخ الأرض في مقدمة كتاب التأملات الديكارتية (ما الفينومينولوجيا؟): "إن هناك ضربا من ضروب القصدية يدل على الترافق بالوجود وهو عبارة عن الحدس بالمماثلة يطلق عليه هوسرل اسم الشعور بالحضور وهو خلق أولي في نظره"⁽³⁴⁾.

فمن مجال القصدية تنتقل أناي إلى إدراك الآخر بواسطة الوعي لأن الأنا هو الطبقة الدنيا والعميقة في الوعي فمن هذا ينتقل كل وصف تقوي من مجال غير خاص بي إلى مجال خاص بي ويصبح من تجريبي الخاصة ويكون على صلة وثيقة بي وذلك بإدراك الآخر عن طريق الحدس وهو ما يولد مصطلح المزوجة^(*) فالمزوجة هي عَشْة الآخر كجسم شبيه بجسمي في جسم أناي وهذا الجسم الآخر لا بد له من حضور ومشاركة حتى يكتمل إدراكه في أناي. فمن خلال المزوجة تستطيع الإنية الواحدة أن تخرج وتلقى بالإنيات الأخرى لا تشبه إنيتي، فتنشئ ذات بينية يتكون

³³ أنطوان خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهرية، دار التنوير للطباعة والنشر، دط، بيروت-لبنان، 2008، ص 60.

³⁴ هوسرل إدموند، التأملات ديكارتية: المدخل إلى الفينومينولوجيا، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت، 1958، ص 29.

* المزوجة: هي إزدواج "إنيتي" الخاصة بي بـ"الإنية الأخرى" أو إنية الآخر في حقل إدراكي لطبيعي الأولية أنظر: التأملات الديكارتية: التأمل الخامس: الفقرة 51S.

فيها العالم "وهنا لا يعود العالم عاليا بالنسبة إلى الذات البينية؛ بل يصبح متضمنا فيها، بصفته تعاليا؛ وتكون نتيجة ذلك قيام الانسجام بين الإنيات"⁽³⁵⁾.

تلك هي خلاصة وجهة النظر الإستمائية التي أثرت على الحقبة التاريخية لولادة "فكرة الفيثومينولوجيا" والمنهج الفيثومينولوجي مع هوسرل الذي عاود تأصيل الفلسفة بصفة عامة والمنهج بوجه خاص ضمن إشكال أساسي: كيف ننتقي معرفة حقّة؟ لذلك فمسار تاريخ الفلسفة من وجهة فيثومينولوجية هي تتالي حقب سعت لتحقيق مناهج لكلا على حدّ وجهة نظرهما وأهدافها وما فيثومينولوجيا إلا خلاصة هذه الأهداف التي كانت تحتاج في الأخير لنوع من الفعل (البراكسيس)، وهوسرل باعتباره رياضي لم يمنعه هذا في الخوض إلى مثل هذه المسائل وهذا لما يتضمن هذا الموضوع من الجدّة وغموض الوجهة، وتعتبر نهايات القرن التاسع وبدايات القرن العشرين مسافة زخم إبيستمولوجي استطاعت من خلاله الفيثومينولوجيا أن تجد مكانا تقف عليه وسبيل تسعى إليه إنه: المنهج، وما المنهج الفيثومينولوجي في طريقة دراسته للظواهر إلا محاولة من وجه نظر لتجاوز العائق الإبيستمولوجي بتعبير بشلار التي وقعت فيه فلسفات العصر؛ بل تريد أن تكون علم للمعرفة ونقد للمعرفة فهي إذن تعتزم أن تكون علما ومنهجاً بيّن لممكنات، ممكنات المعرفة وممكنات التقوّم⁽³⁶⁾، وأن فكرة "العودة إلى الأشياء ذاتها"⁽³⁷⁾ لغز غير برنتانو وألهمت هوسرل لبناء الفلسفة الفيثومينولوجيا ولأن فكرة تحويل الفلسفة إلى علم محكما يقتض بالضرورة العودة إلى ماهية الأشياء في ذاتها ومنه كان هم الفيثومينولوجيا في: "البحث عن أسس يقينية للعلم..[و] الردّ على كل الفلسفات"⁽³⁸⁾.

³⁵ المصدر السابق، ص 32.

³⁶ HUSSERLEdmund, L'idée de la phénoménologie, cinq leçons, traduit par Lowit (A), PUF, Paris, 1993, p77.

³⁷ ZARADER Jean-Pierre, Phénoménologie: Un siècle de philosophie, édition Ellipses, 2002, Paris, p46.

³⁸ يوسف سليم سلامة، الفيثومينولوجيا المنطق عند إدmond هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2007، ص30.

المصادر

¹ هوسرل إدموند، التأملات ديكرتية: المدخل إلى الفينومينولوجيا، ترجمة تيسير شيخ الارض، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، 1958.

² _____، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007.

³ HUSSERLEdmund, L'idée de la phénoménologie, cinq leçons, traduit par Lowit (A), PUF, Paris, 1993.

⁴ _____, Méthode phénoménologique et philosophie phénoménologique (conférences de Londres 1922), traduit par Marc RICHIR, Annales de Phénoménologie, 2003.

المراجع:

⁵ إبراهيم مصطفى، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، د.ط، وسنة النشر. ⁶ أنطوان خوري، مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية، دار التنوير للطباعة والنشر، د.ط، بيروت - لبنان، 2008.

⁷ سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1991.

⁸ محمد الشيخ، فلسفة الحدأة في فكر هيغل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2008.

⁹ نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل: نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، الجزائر، 2008.

¹⁰ HENRI Arvon, La philosophie allemande, éditions Seghers, Paris, 1970.

¹¹ MARC Lonny, Découvrir la philosophie contemporaine, Édition Eyrolles, Paris, 2009.

¹² ZARADER Jean-Pierre, Phénoménologie: Un siècle de philosophie, édition Ellipses, 2002, Paris.